المحاضرة الثامنة

مناهج دراسة تاريخ العلوم و نزعاته و تياراته:

- **مناهج العرب و المسلمين:**

كل الدراسات حول المساهمات الجليلة للمسلمين في فروع العلوم و المعرفة تؤكد على الموضوعية التي كان يتصف بها العلماء العرب والمسلمين في تناولهم للقضايا العلمية. مما أدى إلى تميز علومهم عن غيرها السابقة عنهم، وقوة تأثيرها على غيرها اللاحقة. وقد كان المنهج القويم أهم ما ميز الحضارة العربية الإسلامية في منتوجها المعرفي العلمي. وسوف أركز على هذه النقطة" منهج دراسة تاريخ العلم.

- تنقسم العلوم التي اشتغل بها العرب إلى علوم أصيلة وعلوم محدثة، فالأولى نشأت في ظل دولة الإسلام وعلى أيدي العرب أنفسهم، أما الثانية فتلك التي نشأت خارج البيئة العربية، ثم دخلت في بلاد الإسلام وطوّرها العلماء. بعد حركة الترجمة التي نشطت في أواخر القرن 1 هـ / 8 م، واستمرت في الازدهار بداية القرن 8 هـ/ 14 م ولم يكتفي العرب بترجمتهم لتراث الأمم ،العلمي خاصة، بل أضافوا إليها كثيرًا، وجعلوا ما توصل إليه غيرهم مقدمة أساسية لأبحاثهم. كما أبدعوا في كثير من العلوم. امتثالا للدين الإسلامي وحبا للعلم والتأمّل في الكون، إضافة لتشجيع الخلفاء والحكام الذين أحبوا العلم وأكرموا العلماء على الإبداع بعدما استقرت الدولة العربية الإسلامية وازدهرت سياسيًا واقتصاديًا. فتُرجمت الكتب الكلدانية والإغريقية والفارسية والسريانية والقبطية، إلى العربية. وبلغت الترجمة أوجها في عهد المأمون (198. 218هـ، 813 . 833م) الذي كان يقبل الجزية كتبًا، ويدفع وزن ما يترجم ذهبًا. وقد أسهم المترجمون كثيرًا في تكوين المصطلح العلمي والفلسفي الذي لا يزال بعضه مستخدمًا حتى الآن. وكانت الترجمة تتم في بادئ الأمر من اللغة الأصل إلى السريانية ومنها إلى العربية، ثم في مرحلة لاحقة صارت مباشرة من اللغات الأصل إلى العربية.

- لم يكتفي علماء العرب و المسلمين بالترجمة فبرز منهم علماء ومفكرون أبدعوا في شتى مجالات المعرفة منطلقين مما نقل من معارف الأمم الأخرى. ولم يتقبل العلماء علوم غيرهم مباشرة خاصة منها الطبيعية، بل أخذوها بحذر شديد بعد أن صارت لهم طرقهم الخاصة التي تعتمد على التجربة والملاحظة التي اعتبروها الأساس والمنهج في الدراسة العلمية. وقد كان لأسلوب **الجرح والتعديل**[1] الذي اتبعه علماء الحديث في تنقية الحديث وتمييز الصحيح من الموضوع أثر كبير في توجيه منهج المسلمين في البحث العلمي. لذا نجد أن العلماء المسلمين في شتى ميادين المعرفة جعلوا **البرهان دليلاً وشاهدًا**. فالدعوة إلى الإنصاف وإلى الحق والصدق والمعرفة كانت من صميم مقدمات أعمالهم، ولم يكن تفكيرهم العلمي يختلف كثيرًا عن المنهج العلمي الحديث. فهذا جابر بن حيان (ت 200هـ، 815م) شيخ علماء الكيمياء المسلمين يدعو إلى الاهتمام بالتجربة ودقة الملاحظة فيقول: << ومِلاكُ كمال هذه الصنعة العملُ والتجرِبة؛ فمَن لم يعمل ولم يُجَرِّب لم

[1] الجرح والتعديل: علم من علوم الحديث، يبحث فيه عن جرح (ذكر عيوبهم التي تخل بالرواية) الرواة وتعديلهم(ترجيحهم وذكر فضائلهم التي تزيد الثقة فيهم) بألفاظ مخصوصة. قصد صون الشريعة وقصد النصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم، وعامة المسلمين، لا طعناً في الناس، ولا غيبة لأعراضهم فيما ليس مباحاً. وكما جاز الجرح في الشهادة "الشهود " جاز في الرواية "الرواة " فإن التثبت في أمر الدين أولى من التثبت في الحقوق والأموال، إلا أنه لا يجوز التجاوز عن الحد المطلوب من نقد الرواة،

يظفر بشيء أبدًا.>> وقد سلك الحسن بن الهيثم (في البصريات) الطريقة المثلى في إجراء البحث العلمي وقال بالأخذ بالاستقراء والقياس والتمثيل، وضرورة الاعتماد على النمط المتبع في البحوث العلمية الحديثة فيقول: << يبدأ في البحث باستقراء الموجودات وتصفّح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات، ويلتقط باستقراء ما يخص البصر حال الإبصار، وم اهو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشتبه في كيفية الإحساس، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والتدريب، مع انتقال المقدمات والتحفظ في الغلط في النتائج.>>

- **مناهج المستشرقين:**

الاستشراق :هو طلب الشرق والاتجاه إليه .فهو حركة اتجهت نحو الشرق لدراسته ومعرفته؛ لأغراض ودوافع معينة. وهو كما يرى إدوارد سعيد في كتابه " الإستشراق" القيام" :بتدريس الشرق أو الكتابة عنه، أو بحثه– ويسري ذلك سواء أكان المرء مختصّا بعلم الإنسان، أو بعلم الاجتماع، أو مؤرّخًا، أو فقيه لغة – في جوانبه المحددة والعامة على حدّ سواء– فالاتجاه نحو الشرق بالدراسة والبحث أو الكتابة، في أيّ مجال من مجالات المعرفة الإنسانية هو عمل استشراقي، فقد تناول الاستشراق البحث في الإنسان الشرقي، وجغرافية بلاده، وتاريخه وعقيدته، ودينه وقرآنه ونبيّه) صلى الله عليه وسلم(، وعاداته، ولغته ولهجاته، وتراثه،وعلومه وآثاره، وأدبه، واقتصادياته، وسياسته وإدارته، وكل مناحي حياته.

تنوعت مناهج المستشرقين بتنوع مدارسهم والعصر الذي كتبوا فيه، ففي بدايات الاستشراف الذي كان منطلقاً من البواعث الدينية التعصبية كان المنهج السائد هو المنهج القائم على الجدل والتعصب والحقد. وقد انتقد الغربيون أنفسهم هذا المنهج. وهناك من المستشرقين من تظاهر بالموضوعية ولكنه كان يخفي تحت ستار الموضوعية الزائفة مناهج بعيدة كل البعد عن الموضوعية. فمن أهم شروط الموضوعية احترام مسلمات الدين الإسلامي وثوابته.

يبقى هنالك سؤال محير من المفروض أن تكون له إجابة صريحة: ما الذي يدعو الباحث الغربي إلى بذل كل هذا الجهد والعمر والمال في دراسة عالم غريب عنه. يدرس لغاته التي تختلف تماماً عن لغته، ويحاول جاهداً فهم آدابها وعقائد أهلها وتاريخهم؟

يقول المستشرق الألماني رودي باريت (Rudi Paret 1901 - 1982)

(فنحن معشر المستشرقين، عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية والعلوم الإسلامية لا نقوم بها قط لكي نبرهن على ضعة العالم العربي الإسلامي، بل على العكس، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثله الإسلام، ومظاهره المختلفة، والذي عبر عنه الأدب العربي كتابة، ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيه النظر، بل نقيم وزناً فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي أو يبدو وكأنه يثبت أمامه، ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن

أعلام الاستشراق: في مختلف التخصصات.

مستشرقين فرنسيين

إل.أ سيديو(1808-1876) L.A. Sedillot

أرنست رينان(1823-1892)Ernest Renan

رينيه باسية(1855-1924)Rene Baset

وليم مارسيه(1874-1956) William Marcais

لوي ماسنيون(1883-1962) Louis Massingon

ليفي بروفنسال(1894-1956) Levi-Provencal

ريجيس بلاشير(1900-1973)R.L. Blacher .

مكسيم رودنسون.1915 Maxim Rodinson

مستشرقين بريطانيين

وليام بدول (1516-1632) William Bedwell

إدوارد بوكوك (1648-1727) Edward Pocoke

جورج سيل(1697-1736)George Sale

إدوارد لين(1801-1876) .Edward Lane

وليام ميور(1819-1905) William Muir

ديفيد صموئيل مرجليوث(1858-1940) David Samuel Margoliouth

توماس وولكر آرنولد(1864-1930) Sir Thomas Walker Arnold

سير هاملتون جيب Sir Hamilton R. A. Gibb.

مونتجمري وات .Montgomery Watt

آرثر جون آربري(1905-1969) Arthur John Arberry

برنارد لويس(-1916) .Bernard Lewis

مستشرقين ألمان

يوهان جاكوب رايسكه(1716-1774) Johann Jakob Reiske

جورج ولهلهم فرايتاج(1788-1861) George Wilhelm Freytag

غوستاف فلوجل(1802-1870) Gustav Flugel

يوليوس فيلهاوزن(1844-1918) Jullius Wellhausen

ثيودور نولدكه(1836-1930) Theodor Noldeke
كارل بروكلمان(1868-1956) Carl Brockelmann
كارل هاينرتش بيكر(1876-1933)Carl Heinrich Becker
جوزف شاخت(1902-1969) Josef Schacht
هيلموت ريتر(1892-1971) Hellmut Ritter
رودي بارت Rudi Paret
آنا ماري شميل(-1922) Annemarie Schimmel

مستشرقين روس

ف.ف. بارتولد (1869-1930) V.V. Barthold
إجناطيوس يوليانوفيتش كراتشكوفسكي() Ignaij Julianovic Krackovskij.
و. إيفانوف(1886-1970) W. Ivanov.
كريمسكي(1871-1941) A.E. Krymsky
شميت(1871-1941) A.E. Schmidt.
بارانوف–1892) Baranov

دائرة المعارف الإسلامية.

على الرغم مما لنا نحن المسلمين على هذه الدائرة من مآخذ كثيرة فإنها تعد ثمرة من ثمار التعاون العلمي الدولي بين المستشرقين. وقد تم إصدارها في طبعتها الأولى بالإنجليزية والفرنسية والألمانية في الفترة من 1913م إلى عام 1938م . وقد تولت نقلها إلى العربية لجنة دائرة المعارف الإسلامية من خريجي الجامعة المصرية منذ عام 1933م لم تصل في الترجمة إلاّ إلى حرف العين.. وقد عمد المترجمون إلى نشر تعليمات هامة في أعقاب الكثير من المقالات لتصحيح الخطاء التي وقع فيها المستشرقون، وقام بكتابة هذه التعليمات مجموعة من العلماء المعروفين . وقد تجاوز المستشرقون فيما بعد هذه الدائرة المتداولة، وقاموا بإصدار دائرة معارف إسلامية جديدة أعيدت فيها كتابة المقالات بناء على ما صدر من بحوث حديثة وما نشر أو اكتشف من مخطوطات . وقد ظهرت الطبعة الجديدة باللغتين الإنجليزية والفرنسية فقط من عام 1954م حتى عام 1977م.
وقد أشار نجيب العقيقي إلى أن اللجنة العربية لترجمة دائرة المعارف ترجع الآن إلى الطبعة الجديدة ابتداءً من حرف العين بدلاً من الرجوع إلى الطبعة القديمة التي تقادمت بعض معلوماتها(70)

يقول (رودي بارت) :

(فنحن معشر المستشرقين، عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية والعلوم الإسلامية لا نقوم بها قط لكي نبرهن على ضعة العالم العربي الإسلامي، بل على العكس، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثله الإسلام، ومظاهره المختلفة، والذي عبر عنه الأدب العربي كتابة، ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيه النظر، بل نقيم وزناً فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي أو يبدو وكأنه يثبت أمامه، ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن(80)) .

وقد لا يبدو على هذا المنهج غبار من وجهة النظر العلمية. (فالقوم يدرسون العلوم الإسلامية العربية ويضعون نظريات، ويكونون آراء في أثناء ما يقومون به من دراسات، ويهتمون بتقديم أدلة وأسانيد لهذه الآراء والنظريات، يستمدونها من المراجع الإسلامية نفسها، وهذا العمل في ظاهره عمل علمي سليم. ولكن الفحص الدقيق أثبت أن كثيراً منه مصنوع، وكثيراً ما يكون الدافع إليه الرغبة في التجريح، وتوهين العقيدة الدينية والشريعة الإسلامية)(81) .

قد عرض مثلاً أحد المستشرقين المعاصرين وهو . جاستون فييت) في كتابه (مجد الإسلام) . تاريخ الإسلام عن طريق صفحات مختارة من أقوال المؤرخين والكتاب المعاصرين لكل فترة من فترات هذا التاريخ . وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب ينضح بالحقد والطعن في الإسلام وتاريخه، لأن (جاستون فييت) اختار فقط النصوص التي تتفق مع الاتجاه الذي اختاره هو سلفاً وهو اتجاه يتسم بالعداء والكراهية للإسلام والمسلمين(82).

والبحث العلمي النزيه لا صلة له إطلاقاً بالرغبة في الطعن والتجريح، والبحث عن نقاط الضعف والتشوية، وتسقط الإخطاء. والأسلوب العلمي يحتم ضرورة الاستيثاق من صحة النصوص والأسانيد التي نستنبط منها ما نستنبط من نظريات، ولكن الرغبة في التجريح والتشويه كثيراً ما حملت المستشرقين على التماس أسانيد واهية مرفوضة يؤيدون بها ما يقررونه من نظريات . (فهم لا يترددون في الاعتماد على الأحاديث الضعيفة وهم ينقبون في طوايا كتب التاريخ والسير عن أخبار ضعيفة غير ثابتة يدعمون بها آراءهم. ولهم صبر لا ينفد في استكشاف هذه المخبوءات واستغلال الضعيف من الدلالات. ومهما يكن من شيء فهم لا يستوعبون دراسة ما بأيديهم من المسائل، وكثيراً ما يغفلون النصوص والأخبار التي تناقض ما يقررون)(83) .

وهذا بطبيعة الحال أمر ليس من العلم في شيء، وإنما هو انحراف عن النهج العلمي السليم. وهذا الانحراف العلمي هو للأسف طابع الكثير من الدراسات الاستشراقية حول الإسلام، الأمر الذي يجعلنا . نحن المسلمين . نقف من هذه الدراسات موقف الحذر ، ويحتم علينا الكشف عما فيها من زيف وخداع . فالكثير من النظريات والآراء التي يقولون بها مبنية على افتراضات لا أساس لها وتخمينات لا سند لها .